المجتمعات في أنواعها وتطورها وتأثير البيئة عليها في نظر ابن خلدون

أ . عبد الكريم فايزي

Faiziabdelkerim@gmail.com

جامعة الشهيد حمَّه لخضر – الوادي

ملخَّص:

تهدف الدراسة إلى إلقاء نظرة على جانب من فكر ابن خلدون الإجتماعي، وبالتحديد تصنيفه للمجتمعات، وأنواعها وخصائص كل منها، وعوامل تطورها ونموها، وكيفية خضوعها لجملة من المؤثرات التي تؤثر في جميع مراحل تشكل المجتمع الإنساني.

Types et évolution des sociétés et impact de l'environnement aux yeux d'Ibn Khaldoun

Résumé :

L'étude a pour objectif de rechercher côté de la pensée sociale d'Ibn Khaldoun, en particulier le classement des communautés, ainsi que les types et caractéristiques de chacune d'elles, et les facteurs de développement et de croissance, et de quelle manière il devient l'objet de affecter toutes les étapes de la forme de la société humaine.

Types and development of societies, and the impact of the environment, in the eyes of Ibn Khaldun

Abstract :

The study aims to seek Side of the social thought of Ibn Khaldun, specifically the ranking of communities, and the types and characteristics of each of them, and the factors of development and growth, and how it becomes the object of a number of influences that affect all stages of the shape of human society.

مقدمة:

لقد عرف المغرب الإسلامي والعالم الإسلامي ككل، خلال القرن الثامن الهجري والثالث عشر من الميلاد، تراجعا حضاريا وثقافيا، صاحبته فوضى سياسية واقتصادية، ألقت بظلالها على المجتمع بمختلف فئاته ومراتبه، فتعددت الكيانات السياسية في القطر الواحد، ما خلق صراعا وفوضى زادت في الأمر تعقيدا، ففي الفضاء المغاربي وحده نجد ثلاث دول متصارعة فيما بينها، متمثلة في المرينيين في المغرب الأقصى والزيانيين بالمغرب الأوسط والحفصيين بتونس، وقد حاولت كل واحدة منها أن تفرض نفوذها على بلاد المغرب الإسلامي بضم أراضي جاراتها إلى أملاكها.

في ظل هاته الظروف برزت شخصية وُصفت بأنها سابقة لعصرها، استقطبت الأنظار وكتبت عنها الآلاف من الأقلام لتميزها الفكري ومقامها العلمي الرفيع المستوى، وهي شخصية العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي تكوَّن تكوينا علميا متينا على يد أكبر شيوخ عصره ما ضمن له المكانة العلمية المرموقة، إضافة إلى كونه رجلا سياسيا بارعا تولى مختلف المناصب السياسية في بلاطات أمراء وملوك دول المغرب الإسلامي الثلاثة والأندلس، كل هذا بدافع الطموح السياسي والرغبة في الوصول إلى السلطة هذا ما جلب على ابن خلدون الكثير من المشاكل والمحن، التي صقلت من تجاربه أكثر، إضافة لتنقله المستمر بين مختلف حواضر المغرب وبين بواديه وقبائله، ما يسَّر له فهم أعمق وأدق ما كان يحصل من تغيرات وتطورات سياسية واقتصادية وثقافية، وكيف تساهم في حركية المجتمع، وكيف يساهم هذا الأخير في خلق التأثير في بقية النواحي الأخرى، ولقد دوَّن ابن خلدون كل مشاهداته وملاحظاته في كتابه المعروف بالمقدمة والتي وضع فيها أُسس علم جديد سمَّاه "علم العمران البشري" الذي يبقى شاهدا على عبقريته عبر التاريخ.

فابن خلدون كتب في مختلف النواحي، ولعله أبدع أكثر في أفكاره المتعلقة بالجانب الاجتماعي، وخاصة أفكاره المتعلقة بالمجتمع الإنساني والتي كان مبدعا وسبَّاقا إلى

اكتشافها والتنظير لها، والتي تهمنا كدارسين للتاريخ الاجتماعي في معرفة التفسير الخلدوني لحركية المجتمع وأهم الظواهر الاجتماعية التي تحكم المجتمع وتؤطِّره وتسيِّره، والتي شكَّلت نواة لحقل دراسات جديد في ميدان العلوم الإنسانية والإجتماعية يعتبر فكره فيها أصيلا.

أولاً: أنواع المجتمعات:

يقسم ابن خلدون المجتمعات إلى نوعين وهما:

- **النوع الأول: التجمعات الحيوانية:**

هذه الحالة هي "حالة التوحش البدائية، القريبة من أسلوب حياة الحيوانات"، وفي تصور ابن خلدون كانت هذه الحالة منذ القدم من نصيب جميع بني البشر: "واتسع عالم الحيوان، وتعدَّدت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الرويَّة والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده"[1]، وقد اكتسب الإنسان خاصية الفكر بعد أن بلغت طبيعته الحيوانية حد الكمال، فبدأ بالتنوع في آثاره، بعد أن لم تكن له أيَّة معرفة، بل كان حيوانيا مثل جميع الحيوانات الأخرى، مكوَّنا من الدم واللحم والصوف.

وهاته التجمعات الحيوانية تشبه إلى درجة كبيرة التجمعات الإنسانية غير أنها خاضعة للطبيعة والفطرة والغريزة، وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد لدى بعضها نظاما في غاية الدقة والإحكام تسير وفقه، وسلطة تخضع لها وتأتمر بها، وتجلب القوت في وقته وتختزنه لوقت الضرورة والحاجة، وهذا ما يمكننا ملاحظته في مجتمع النمل والنحل واللذان يمثلان صورة مثالية في مجتمع متعاون ومنظم مقارنة مع باقي الحيوانات، وهذه التجمعات في أعمالها ونظمها تظل ثابتة مستقرة غير متطورة لاعتمادها على الغريزة الفطرية فيها[2].

- **النوع الثاني: التجمعات الإنسانية:**

وهي تنشأ وتتطور نتيجة مجموعة من الظروف والأسباب التي تجعل الإنسان في حاجة إلى أبناء جنسه، لضرورة اقتصادية ودفاعية تحفظ أمنه واستقراره، وفطرية يحفظ بها نوعه

وتضمن استمراره وبقائه في هذه الحياة، وبما أن الحياة الحيوانية في تجمعها تعتمد على الفطرة، والمجتمعات الإنسانية تعتمد على العقل والتدبير، فإننا نجد فرقا كبيرا في نوع العمل الذي تقوم به ونمط الحياة وتطورها في مختلف الجوانب، بينما تبقى الحياة الحيوانية في نفس المرحلة التي وجدت عليها[3].

ومن هنا نجد ابن خلدون يقول: "ولما كان الإنسان متميزا على سائر الحيوانات بخواص اختص بها، فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات، وشرف بوصفه متميزا عن المخلوقات، ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك بين الحيوانات كلها إلا ما يُقال عن النحل والنمل والجراد وهذه وإن كان لها مثل ذلك فبطريق إلهامي لا بفكر وروية، ومنها السعي إلى المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل الله من الإفتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه وهداه إلى التماسه وطلبه، قال تعالى: ((*أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى*))[4] ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للإنس بالعشير واقتضاء الحاجيات لما في طباعهم من التعاون على المعاش"[5].

ويقسم ابن خلدون المجتمعات الإنسانية إلى قسمين مجتمع بدوي أو ما يسميه "العمران البدوي"، وهو الذي يكون "في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال"[6]، والمجتمع الحضري "العمران الحضري"، الذي يتخذون فيه "القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صروحها ويبالغون في تنجيدها"[7].

وما يحدد هذا التباين في نمط العيش هو أسلوب الحياة المتبع الذي تعيشه جماعة بشرية أو أخرى، والمتوقف على أسلوب الحصول على مقومات الحياة، ونوع النشاط الاقتصادي للجماعة، فأسلوب الحياة البدوية والحضرية يتحدد على الأخص بنوع المهنة التي تسود في مجتمع معين، وطبقا لنوع المهنة يضطر هذا المجتمع إلى أن يعيش في هذا

المكان، وفي هذا الحيز من الأرض المختلف الخصائص، أو في هذه البيئة الطبيعية المباشرة أو تلك[8].

يقول ابن خلدون في ذلك: "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون في تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي"[9].

أ- **المجتمع البدوي**: ويتميز المجتمع البدوي بمجموعة من الخصائص وهي:

الخاصية الأولى: اقتصاده قائم إما على الزراعة وتربية الحيوانات، وهي الوسيلة المباشرة والمتوفرة بين يدي الإنسان لتوفير الموارد للازمة للبقاء.

فيقول ابن خلدون في ذلك: " فمنهم من ينتحل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم ن ينتحل القيام على الحيوان من الشاء والبقر والمعز والنحل والدود للقز لنتاجها واستخراج فضلاتها..."[10].

الخاصية الثانية: المستوى المنخفض في الإنتاج والإستهلاك والثقافة:

يعبر ابن خلدون عن هذه الخاصية بالقول: "أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي، يتخذون البيوت من الشعر أو الوبر أو الشجر، أو من الطين والحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستظلال ولكن لا ما وراءه وقد يأوون إلى الغيران. وأما أقواتهم فيتناولونها بيسير العلاج أو بغير علاج البتة، إلا ما مسته النار"[11].

الخاصية الثالثة: التعلق ببيئة معينة وحالة معينة للإقامة:

يقول ابن خلدون: " فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم. ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر، فهم ظواعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه

لحيواناتهم، اذ التقلب في الأرض أصلح بهم، ويسمون شاوية، ومعناه القائمون على الشاء والبقر، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة به، وأما ممن كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالا، إذ الإبل أصعب الحيوانات فصالا ومخاضا وأحوجها في ذلك إلى الدفاءة، فاضطروا إلى إبعاد النجعة ... فكانوا لذلك أشد الناس توحشا"[12].

فابن خلدون هنا يقدم تصنيفات خاصة بالبدو حسب طبيعة المناطق التي يسكنونها، وهي في ظاهرها تصنيفات غير مطَّردة النسق، فهي تتضمن أنواعا اجتماعية ثلاثة هي: البدو الأقحاح، ونصف البدو أو المنتجعون، وأخيرا المزارعون الذين لا يكون توطنهم إلا نسبيا، فلا يملك الأولون إلا الإبل.

بالنسبة للمجموعة الأولى فالبدوي الذي يملك إبلا هو مُرغم على التنقل الدائم بحثا عن الكلأ والماء المالح لجله، وبالتالي فهو يوغل في القفر ويسكن الخيام، بحكم تنقله المستمر[13].

فقد تميز عصر الخلافة والطوائف على وجه التحديد بالإندماج العميق الذي حدث فيما بين العناصر الإثنية والطائفية (خصوصاً بين المسلمين وأهل الذمة)، فتشكلت على إثر أما الفئة الثانية وبسبب ملائمة الظروف المناخية فيزيدون من عدد مواشيهم وينوعونها، وعندما تتحسن أحوالهم خاصة إذا كانوا يمارسون النهب، فإنهم يضيفون النشاط الزراعي إلى نشاطاتهم، فيربُّون المعز وحتى البقر بالإضافة إلى الخراف، وبما أنهم غير مستقرين في مكان واحد إلا جزءا من السنة فإنهم يخصصون باقي وقتهم للنجعة، زد على ذلك أن لظروف المعيشية المستجدة تدفعهم إلى أن يتخلصوا من إبلهم، فيعهدون بها إلى رعاة، وهكذا فإنهم يصبحون بالضرورة أقل خشونة من ذي قبل، فيسكنون الخيام تارة والأكواخ تارة أخرى[14].

أما المجموعة الثالثة التي تقطن البادية فإنها تتألف من الفلاحين، والذين تنصب اهتماماتهم على الزراعة أكثر مما يهتمون بتربية المواشي، وهم مستقرون في أغلب

الأحيان ولا يضطرون إلا مغادرة أراضيهم والابتعاد عنها إلا نادرا، وهاته الفئة التي تسكن البادية هي التي تضاهي إلى حد كبير سكان المدينة، إذ أنها تتيح الانتقال الطبيعي من العمران البدوي إلى العمران الحضاري[15].

الخاصية الرابعة: خضوع المجتمع البدوي اقتصاديا وسياسيا للمدينة:

يفسر ابن خلدون ذلك بقوله: " إن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار، لأن الأمور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو، وإنما يوجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح، وموادها معدومة، ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم بالكلِّية من نجار وخياط وحداد، وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضرورات معاشهم في الفلح وغيره، وكذا الدراهم والدنانير مفقودة لديهم، وإنما بأيديهم أعواضها من مغل الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته، وألبانا وأوبارا وأشعارا وإهابا مما يحتاج إليه أهل الأمصار، فيعوضونهم منه بالدنانير والدراهم، إلا أن حاجتهم إلى الأمصار في الضروري، وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي والكمال ، فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم، فماداموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى أهلها، ومتصرِّفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك وطالبوهم به، وإن كان في المصر ملك كان خضوعم وطاعتهم لغلب الملك..."[16].

فالمجتمع البدوي في حاجة دائمة إلى ما ينتجه المجتمع المدني أو أصحاب المدن الذين يمارسون الحرف والصناعات، والتي ينتجون معها مختلف الأدوات والوسائل التي يستعين بها البدوي في حياته ومختلف نشاطاته اليومية والمهنية التي يمارسها، هذا من الناحية الاقتصادية، ومن ناحية أخرى فإن أهل البادية خاضعون في مجملهم سياسيا إلى السلطة التي تحكم في المدينة والمصر القريب منها، وهي تعتمد عليهم في اتخاذها لهم كدرع يحميها من الأخطار التي تهددها من الخارج، ولا يتم ذلك إلا بسطوة حاكم المدينة وقوته وإلا كانوا هم أنفسهم في بعض الأحيان محل تهديد كما يشير ابن خلدون إلى ذلك[17].

ثانياً: التعريف بابن أبي ثور:

ولذلك فإن ابن خلدون يقسم الحياة البدوية إلى:

- البدو الرحل المشتغلين بالإبل.
- شبه الرحالة من رعاة الشاء والبقر.
- سكان الحضر من المزارعين الذين هم بأسلوب حياتهم أقر الى المقيمين في مساكن المدن ، إلا أنهم لا يرتقون إلى ساكني المدن[18].

وهذا التصوير الدقيق الذي رسمه ابن خلدون لحياة البداوة وحياة الحضر، يبين لنا أسباب مواطن القوة ومواطن الضعف لدى كل من البدو والحضر.

ب- المجتمع الحضري:

أما الحضر ومعناه الحاضرون، فهم سكان الأمصار، أي المدن، وهم أصلا من البدو، ثم ما لبثوا أن اتسع معاشهم، ونمت ثرواتهم، فمالوا إلى السكون والدعة ولين الحياة وبذخ العيش، ففي مقابل المجتمع البدوي فإن سكان الحضر لا يقتصرون على إنتاج "الضروري" فحسب، ولكن "الكمالي" كذلك وهم يستطيعون أن يعيشوا في الغنى والرفه[19]، والمجتمع الحضري يميزه:

- الاشتغال بالصناعة والتجارة.
- المستوى الرفيع في الاقتصاد والإستهلاك والثقافة.
- درجة كبيرة من الأمن بالتحصن وراء جدران المدن.

الاستقلال الاقتصادي والسياسي عن المجتمع البدوي.[20]

وبالرغم من التفاوت العميق بين البدو والحضر، فإن صورتي الحياة الإجتماعية مرتبطتان في الأصل الذي بينهما: " إن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه، وإن الحضر المعتنين بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم،

ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، لأن الضروري أصل والكمالي فرع..."[21].

فابن خلدون يبرز هنا أن البدو يعيشون بما قلَّ مما تنتجه الطبيعة وما يجنونه من محاصيل وما ينتجونه من لحوم وألبان حيواناتهم، في حين أهل المدينة نتيجة استقرارهم وتعلمهم المعارف والعلوم المتعددة، والحرف والصنائع المتنوعة، فإنهم تفننوا في إنتاج ما هو زائد عن الضرورة إلى ما هو كمالي وحاجي، ويكمل قائلا" فالبدو أصل للمدن والحضر سابق عليها، لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الترف والكمال إلا إذا كان الضروري حاصلا، فخشونة البداوة قبل رفه الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي... والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها، أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته، ومما يشهد أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر..."[22].

ومن خلال كلام ابن خلدون السابق نستنتج أن المجتمع الإنساني بعنصريه المكونين له البدو والحضر مرتبطان أشد ارتباط ببعضهما البعض في المصالح، وكل مرحلة هي مرحلة ممهدة لما يليها فالمجتمع في نظر ابن خلدون بحياته البدوية وحياته الحضرية كأسفل وأعلى مرحلة في تطور المجتمع، فالمرحلة السفلى مرحلة الإنتاج البدائي القليل التنوع ومستوى الحياة المنخفض والمرحلة العليا هي مرحلة الإنتاج النامي المتنوع، والمستوى الرفيع للحياة[23].

ثانياً: تطور المجتمع عند ابن خلدون:

التغير لدى ابن خلدون سمة عامة تعتري كل شيء وتعمل على تبديل أحواله، ولعل من أهم مجالاته التي أوردها لنا ابن خلدون هو المجال الاجتماعي، ويرجع إليه السبق في فهمه ومحاولة سبر أغواره واكتشاف كنهه، فالمجتمعات جميعا تختلف أوضاعها باختلاف

عصورها وشعوبها، فهي في حالة تغير مستمر، لا تعرف الجمود أو السكون مطلقاً، فكل مجتمع يمر بأحوال متعددة على مدى تاريخه، تشمل هذه الأحوال كل الظواهر الاجتماعية التي يمكن تمييزها داخله[24].

حيث "إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول"[25].

إذن كونية التبدل واتصال التاريخ اتصالا يكشف عن الترابط العميق بين الظاهرات المتتالية هي سمة أخرى من سمات المشروع الخلدوني تؤكد طابعه العلمي، ويحاول ابن خلدون أن ينبه الأذهان، حيث إنه عند إهمال هذا العنصر المهم، ألا وهو تغير الأحوال وما يصحبها من حوادث، نقع في الخطأ، أو بعبارة أخرى يجعل القياس اليوم على الأمس باطلا إذا لم يوضع في الاعتبار عامل التغير الذي شمل المجتمعات وظواهرها، إذ إن: "القياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مرامه فربما يسمع السامع كثيرا عن أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط "[26]. ويظهر التطور لدى ابن خلدون في سياق علم التغير حينما يرى أن المجتمع يمر بعدة مراحل، بدءا بمرحلة البداوة، لينتقل إلى مرحلة الملك، ثم الحضارة، فالضمور والانحلال.

وتأخذ نظرية ابن خلدون في هذا المجال شكلا حيويا بيولوجيا، مرتكزة على مقاربة المجتمع في تطوره بالجسم الحي ومراحل حياته المختلفة، فالمجتمع البشري كالإنسان تماما، يولد طفلا وينمو إلى أن يصبح صبيا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ليهرم في الأخير. وكذلك المجتمع فهو يمر بمجموعة من المراحل من ولادة ونشأة وشباب وكهولة وشيخوخة وهرم،

وهذه المراحل في نظر ابن خلدون هي قوانين حتمية يخضع لها المجتمع وفق حركية العالم وما فيه، وحركية عجلة الزمن[27].

والنواة الأولى للتجمع البشري هي الأسرة التي تبنى على العاطفة والشفقة الطبيعية منذ وجوده، وهذا ما يعبِّر عنه ابن خلدون بقوله: "وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر". ومن هنا ندرك أهمية العاطفة بين بني البشر في الحفاظ على نوعهم والمساهمة في تطوره، فهي التي تدفع الأبوين إلى رعاية أبنائهم ونشأتهم، ويحمونهم من كل خطر، وهؤلاء الأبناء أنفسهم عندما يكبرون يحمون آبائهم وأبنائهم كذلك، وهذا لما لصلة الدم والقرابة التي تربط فيما بينهم[28].

ومن الأسرة تتطور الحياة الاجتماعية إلى العشيرة، التي تضم مجموعة من الأسر التي تعود إلى أب واحد في أصلها، وتنشأ من العشيرة الواحدة مع مرور الزمن عدة عشائر والتي تكوِّن بدورها قبيلة[29].

وكلما انتقلنا إلى درجة أعلى من الأسرة إلى القبيلة نجد أن العاطفة تبدأ تقل ولكنها لا تنعدم، فأفرادها يحسون دائما بأن هناك رابط الدم الأبوية تربطهم مع بعضهم البعض، وتدفعهم للتعاون في السراء والضراء، وهذه الأسر تبادر إلى تجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر تطورا، من مجتمع ضيِّق إلى مجتمعات أكبر وأوسع وهي تكون قرابة مصاهرة أو دافع، وإما بواسطة القهر والتغلب، وتكون الدولة في باديْ الأمر صغيرة ثم تأخذ في التوسع والارتقاء تدريجيا، إلى أن تتحول إلى دولة كبرى ذات نفوذ أكثر اتساعا، وخاصة إذا كانت تعضدها عصبية قوية أقوى من العصبيات الأخرى، وهكذا تنتقل من العصبية الضيقة إلى العصبية الواسعة ومن الحياة الغير منتظمة والفوضوية الزائدة إلى الحياة النظامية[30].

والمجتمع هنا أصبح منظما خاضعا لقيادة تنسق أعماله وتشرف على نظمه، بعد أن كان يعيش في جماعات قليلة متفرقة ليست لها طموحات تسعى لتحقيقها، إلا ما هو ضروري لضمان بقائها واستمرارها.

وبما أن إنتاج الضروريات القليل لا يرقى بأصحابها حضاريا، فإن حياتها تعتمد على الصيد والرعي والزراعة وتكون في مرحلة البداوة، ولكن بعد تجمع مجموعة من القبائل وتكوين دولة نظامية ينتقل هذا المجتمع من البداوة إلى الحضارة، ذلك أن كثرة الأيدي العاملة والعقول المدبرة وتنسيق العمل عن طريق نظام سياسي يؤدي إلى بناء مدن وأمصار وإنشاء العمران، هذا بدوره الذي يرتبط بحركة علمية ومعرفية للابتعاد عن الجهل والتفنن في شؤون الصناعات والعمران، ذلك انه يجتاز مرحلة البداوة المقتصرة على الضروري من العيش وحياة البساطة والتقشف، إلى مرحلة الحضارة التي تتطلب الترف والبذخ نظرا لتوفير دواعيه وأسبابه، والتي من جملتها الكثافة السكانية المرتفعة وتنوع العمال المتخصصين في فنون مختلفة، وتوفير الوقت للتفكير والدراسة واستتباب الأمن والحصول على الكماليات وبذلك يرتقي المجتمع من البسيط إلى المركب، ويرتقي من حياة السذاجة إلى حياة أكثر تقدماً وأشد تعقيداً[31].

ويمكننا تلخيص المراحل التي يمر بها تطور المجتمع بأربعة أطوار كل مرحلة تؤدي إلى التي تليها، وهذه الحالات أو الأجيال الأربعة كما يسميها ابن خلدون هي:

أ)– حالة البداوة:

وتمثل الجيل الأول في حياة المجتمعات البشرية، وترتكز في رأي ابن خلدون على ركيزتين أساسيتين، أولهما حاجة الإنسان إلى التعاون لإشباع احتياجاتهم الضرورية، وثانيتهما حاجة الناس إلى الحماية والدفاع عن أنفسهم ضد مخاطر الطبيعة والكائنات الحية الأخرى، ومن هنا كانت القبيلة أول الأشكال الاجتماعية الجماعية التي ضمت بني البشر على أساس من العصبية، ووفق تنظيم سياسي واجتماعي معين[32].

ب)– حالة الملك:

يرجع ابن خلدون قيام الملك إلى العصبية التي وحَّدت بين أفراد القبيل الواحد وقوَّت شجاعتهم، وجعلتهم أكثر بأسا ودفعتهم إلى الغزو والفتح وإقامة الملك، والملك يستتبع بالضرورة إنشاء البلدان والأمصار وما يلزمها من مختلف الصنائع وغيرها من الأمور الضرورية للعمران، الأمر الذي يبعد المجتمع وينتقل به من حياة البداوة إلى حياة الحضر[33].

ج)– مرحلة الحضارة:

والحضارة عند ابن خلدون هي غاية العمران وهي أيضا التفنن في الترف، حيث يستقر خلالها الملك وتزخر بالنعيم وتتقن فيها الصنائع وتتجلى المهارات الفنية، ويسود فيها الترف وتتنوع الميول والشهوات، وينصرف الناس كل على ملذاته فتضعف العصبية وتضيع الشجاعة وتلين الخصال، وينسى كل الناس أصول الحماية والمدافعة، ويؤجِّرون الموالي والمرتزقة للقيام بهذه المهمة عنهم، وبالاختصار فإنهم يؤثرون الراحة والدعة على المتاعب، ومن هنا كان هلاكهم على يد قبيل غازي آخر أكثر منهم توحشا وعصبية وحذقا بأمور الحماية والمدافعة[34].

د)– حالة الهرم:

وهي ختام دورة حياة المجتمع البشري في رأي ابن خلدون لأن: " غاية العمران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات ". ويرى ابن خلدون أن حالة الهرم هذه حالة ضرورية لابد منها وذلك لضعف العصبية وإيكال أمر المدافعة والحماية إلى المرتزقة والموالي، وإلى الاكتفاء بمظاهر القوة والغلبة والعصبية دون ممارسة حقيقية لها، بسبب التكالب على أمور الدنيا وإرضاء الشهوات سواء كانت حسية أو جسدية، وكذلك الانغماس في جمع المال بكل الوسائل، وكل هذه الأمور تؤدي إلى هجوم من غازي متربص قوي العصبية متوحش الطباع[35].

ومن هنا يبدأ المجتمع دورته من جديد، حالة بداوة تسودها العصبية، وحالة ملك بالغزو والقهر، وحالة حضارة ببلوغ العمران إلى منتهاه، ثم حالة الهرم وهي آخر مرحلة في السلسلة.

ومن بين أهم العوامل الفاعلة في تطور المجتمع:

البيئة الطبيعية:

والتي تلعب دورا مهما في تغيير الحياة البشرية وتطورها وذلك بفضل اعتدال المناخ وما تتوافر عليه من ثروات، فالأقاليم المعتدلة المناخ من شأنها أن تجلب الناس إليها، فيؤدي ذلك إلى التجمُّع الكثير الواسع الذي ينتج عنه تقدم حضاري وتطور. وإذا رجعنا إلى التاريخ فإن أعظم الحضارات التي أنشاها الإنسان قامت في المناطق المعتدلة المناخ والمتوفرة على الموارد الطبيعية مثل المياه: المياه والغداء والكلأ والأراضي الخصبة، فشكلت بذلك نقطة جذب للسكان الذين امتزجوا مع بعضهم البعض وشكلوا حضارة متقدمة ومتطورة[36].

التطور المعرفي والعلمي:

ويعد من العوامل الرئيسة لتطور الحياة الاجتماعية، وذلك عن طريق اكتساب معارف جديدة وخبرات من خلال الاحتكاك بين الأفراد والمجتمعات عبر فترات الزمن، فالمجتمع الذي لا يهتم لا بالعلم ولا بالمعرفة يبقى رهين الجهل متخبطا في التخلف، وما يجره عليه من عدم مقدرته على مواكبة التطورات الحاصلة عند المجتمعات الأخرى، لأنه يفتقر إلى آليات نقل المعرفة وتطويرها ووسائل الحفاظ عليها، في حين أن المجتمع الذي يعتني بالعلم وبدراسة تجارب الإنسانية التي هي قدر مشترك بين الناس قطع أشواطا بعيدة في التطور وحصل على تقدم ملموس[37].

الاستقرار السياسي:

التطور السياسي بما يخلقه من نظام، ينتج عنه تطور وازدهار حضاري، فكلما كان النظام السياسي قويا ويترأسه قيادة حكيمة متحملة لمسؤوليتها مدركة للأمور بدقة، كلما وصل إلى درجة عالية من التحضر، وتحقيق الرقي والتقدم في شتى المجالات والميادين، فالمجتمع لا يستطيع أن يقيم المشاريع الكبرى ولا أن ينشئ حضارة ولا يتوفر على أمن ولا استقرار إلا بالنظام السياسي، والذي هو ضرورة لا يمكن الاستغناء عنه لما في طبيعة البشر من العدوان والصراع بين الأفراد والجماعات[38].

ثالثاً: أثر البيئة على المجتمع:

لقد أوضح ابن خلدون مدى تأثير البيئة الجغرافية والطبيعية التي يعيش فيها على الحياة الإنسانية، وعلى المجتمع وارتباطه بالمحيط الذي يعيش فيه، من ناحية التأثر في مختلف نواحي حياته وما ينعكس عليه كشخص من الناحية البيولوجية والفيزيولوجية، وعلى نواحي حياته الأخرى الاقتصادية والسياسية والثقافية الفكرية.

فالمناقشات لا تزال تدور بين العلماء الجغرافيين والاجتماعيين حول طبيعة ردة فعل الإنسان على البيئة المحيطة به، فلا غرابة إذن في إثارة ابن خلدون هذه المسألة من وجهة نظره الخاصة، ولكن لفهم رأي ابن خلدون في هذه المسألة ينبغي اعتبار حالة العلم الجغرافي في عصره، فقد كان الجغرافيون آنذاك يميِّزون ثلاثة أنواع من المناخ: الحار والمعتدل والبارد، ويأخذون بعين الاعتبار إجمالا درجة حرارة الهواء ونظام الرياح والعلو عن سطح البحر وطبيعة الإقليم العامة، وقد انطلق ابن خلدون من هذه المعلومات، إلا أنه لم يجعل منها المرجع الوحيد لتفسيراته الاجتماعية، ففي رأيه أن المناخات الحارة والباردة لا تساعد على ازدهار الحياة العمرانية والفكرية، ومن تأثيرها على الإنسان، جسما ونفسا، يذكر بعض الأمثلة: فلون الجلد ناتج من المناخ وهو يتغير بتغير الهواء والمناخ، ويذهب ابن خلدون إلى أن تغير اللون يكون تدريجيا وينتقل التغير بالوراثة[39].

يقول ابن خلدون في ذلك: " وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض، فتبييض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام، وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب، تسود ألوان أعقابهم. وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء "[40].

ويلاحظ ابن خلدون أيضا تأثير المناخ والهواء في أخلاق البشر وتصرفاتهم، ففي البلاد الحارة يغلب على الأخلاق الطيش والخفة وكثرة الطرب، حيث يقول ابن خلدون: "قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ... وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار، محللة له زائدة في كميته ... ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار، واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح الإقليم الرابع أشد حرا، فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا، ويجيء الطيش على أثر هذه..."[41].

وفي البلاد الباردة، يغلب على العكس الانقباض والتروّي والنظر في العواقب، فيقول في ذلك: " ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة، كيف يرى أهلها مطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدحر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه، مخافة أن يرزأ شيئا من مدره، وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء"[42].

كما يذهب ابن خلدون إلى تبيين آثر الخصب والقلَّة، وكثرة الأكل والجوع، في نفسية الناس ومزاجهم، فيقول أن الأغذية الدسمة المسببة للسمنة تؤدِّي إلى انخفاض نشاط الجسم والفكر، والى الابتعاد عن الدين وأعمال العبادة وعن التشدد في ممارسة الفضيلة، بخلاف الجوع والأغذية الجبلية أو البدوية التي تؤدِّي إلى قوَّة الجسم ورشاقة الفكر والإقبال على الفضيلة، وباختصار تؤثِّر البيئة الجغرافية في حياة الجماعات البشرية، في الأبدان

والأمزجة والأخلاق، تأثيرا عميقا، إلا أن تأثيرها ليس تحتيما صارما، إذا استثنينا حالة بعض البدو الذين يسكنون القفار البعيدة[43].

وبهذا يكون ابن خلدون استنتج جملة من القواعد والمؤثرات الجغرافية والمناخية التي تمس حياة الإنسان، يمكن حصرها في النقاط التالية:

أ/– حضارة الإنسانية:

إذ أن البيئة الطبيعية ذات المناخ المعتدل تلعب دورا كبيرا في تجمع الإنسانية وتحضرها، بحيث أن الإنسان منذ القديم أنشأ حضاراته في الأقاليم ذات المناخ المعتدل وسكن فيها، وتمكن من أن يبدع العلوم والمعارف التي ساهمت في السمو به حضاريا واقتصاديا وفكريا، بينما نجد سكان المناطق الباردة والحارة أكثر تخلفا ووحشية وطيشا وذلك لقلَّة عددهم وتأثير المناخ فيهم وبعدهم عن العلم والمعرفة وإنشاء الحضارة[44].

ب/– اللون:

يرى ابن خلدون أنه لا يعود إلى أصل وراثي كما يدَّعي البعض وإنما مرده يرجع إلى تأثير الطبيعة على الإنسان وذلك يختلف باختلاف المناطق التي يسكنونها سواء الحارة منها أو الباردة أو المعتدلة[45].

ج/– التغذية:

إذا كانت التغذية ضرورية لبقاء الإنسان فهم يختلفون في كيفية استغلالها واستعمالها، فالسكان الذين يخلطون المواد الغذائية ويكثرون من الأدم ويسرفون في الأكل، يؤدي بهم ذلك إلى الخشونة في الأجسام والبلادة في الأذهان والإصابة بالأمراض، وبالخصوص إذا كانوا لا يحسنون استعمال التغذية وطريقة الطبخ وإعداد الغذاء، بخلاف الذين يحيون حياة التقشف ويقتصرون على ما هو ضروري من الطعام وعلى أنواع بعينها فإنهم يتمتعون بصحة جيدة وقوام الأجسام ويمتازون بالذكاء والصبر على الشدائد[46].

د/– السلوك والمعتقدات:

إن الخصب يجعل أهله ينغمسون في ملذات الدنيا وشهواتها ويبتعدون عن الفضائل والتدين، بينما سكان المناطق القليلة المردود يعيشون عيشة التقشف تراهم يتحلون بالأخلاق الحميدة ويتسمون بالدين أكثر من غيرهم، لأنهم في منأى عن مشاغب الملذات وزخرفة الحياة[47].

هـ/– النظافة:

إن البيئة التي تحيط بالسكان تؤثر على حياتهم، فإذا كانوا لا يقيمون وزنا للنظافة ولا يدركون الأضرار التي تنتج عنها فإنهم يكونون عرضة للأمراض الفتاكة والهلاك المحقق، ويوجد هذا بالخصوص في المدن الفوضوية التخطيط العديمة الاعتناء بقواعد الصحة، فالمنازل التي لا تدخلها الشمس ولا يتجدد هوائها وتكثر أمامها القاذورات والمستنقعات تكثر فيها الأمراض والأوبئة، لذلك يجب العناية بتخطيط المدن والحواضر والاهتمام بالنظافة وتوفير وسائل الصحة والحياة السليمة، والسكان البدو في منجاة من هذا الخطر حيث الشمس الساطعة والهواء النقي وعدم الازدحام في شؤون الحياة[48].

خلاصة:

إن ابن خلدون في رؤيته للمجتمع كانت لديه نظرة شاملة فاحصة في ما يحيط به وما عايشه وما شاهده وما طلع عليه، فقسَّم المجتمعات على هذا الأساس إلى نوعين مجتمع حيواني ومجتمع إنساني هذا الأخير الذي ينقسم بدوره إلى بدو وحضر، هذه الثنائية في نظر العلاَّمة هي كنتيجة لحراك المجتمع وخضوعه لسنن الكون والحياة في التبدل والتغير والتطور والنمو، فالمجتمع في عين ابن خلدون يمر بمرحلة الولادة ثم النمو ثم الشباب والكهولة والشيخوخة فالهرم، والمجتمع في كل هذا خاضع إلى مجموعة مؤثرات، ومن بين المؤثرات التي أبرزها ابن خلدون تأثير البيئة والمجال الجغرافي على المجتمع الإنساني في تشكله وتطوره وبقائه وفاعليته.

الهوامش

[1] – محمود بن جماعة: نصوص في الإنسان والعمران والفلسفة من مقدمة ابن خلدون، منشورات ألفا، الجزائر، ط 2، 2007م، ص35.

[2] – حسن الساعاتي: علم الاجتماع الخلدوني قواعد المنهج، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 1972م، ص59.

[3] – إدريس خضير: التفكير الاجتماعي الخلدوني وأثره في علم الاجتماع الحديث، موفم للنشر، الجزائر،2007م، ص 153.

[4] – سورة طه، الآية 50.

[5] – سعيد رعد: العمران في مقدمة ابن خلدون، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط 1، 1985م، ص 213.

[6] – إدريس خضير: المرجع السابق، ص 155.

[7] – ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2005م، ج 1، ص 192.

[8] – غاستون بوتول: ابن خلدون وفلسفته الإجتماعية، ترجمة عادل زعيتر، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، مصر، ط 1، 2008م، ص 48.

[9] – ابن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 48، جورج لابيكا: السياسة والدين عند ابن خلدون، تعريب موسى الدويهي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 1، 1980م، ص 87.

[10] – نور الدين حقيقي: الخلدونية: العلوم الإجتماعية وأساس السلطة السياسية، ترجمة إلياس خليل، المطبعة الجهوية، وهران، الجزائر، 1984م، ص 21-23.

[11] – المرجع نفسه، ص 193، جورج لابيكا: المرجع السابق، ص 88.

[12] – ابن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 193-194.

[13] – سعيد رعد: المرجع السابق، ص 234.

[14] – عبد الغني مغربي: الفكر الإجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988م، ص 131-132.

[15] – المرجع نفسه، ص 132.

[16] – ابن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 253-254.

[17] – عبد الغني مغربي: المرجع السابق، ص 124-125.

[18] – ناصيف نصار: الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 3، 1994م، ص 238، محمد عابد الجابري: العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 6، 1994م، ص 147.

[19] – حسن الساعاتي: المرجع السابق، ص 65.

[20] – عبد القادر جغلول: الإشكاليات التاريخية في علم الإجتماع السياسي عند ابن خلدون، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، بيروت، لبنان،1981م، ص 51.

[21] – ابن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 195.

[22] – المصدر نفسه، ص 195-196.

[23] – حسن الساعاتي: المرجع السابق، ص 66

[24] – مجدي عبد الحافظ: فكرة التطور عند فلاسفة الإسلام، ترجمة هدى كشرود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط 1، 2005م، ص 120.

[25] – ابن خلدون: المصدر السابق، ص 399.

[26] – جورج لابيكا: المرجع السابق، ص 41، علي الوردي: منطق ابن خلدون، دار كوفان، لندن، ط 2، 1994م، ص 78-79.

[27] – الطيب بن إبراهيم: مالك بن نبي وابن خلدون مواقف وأفكار مشتركة، دار مدني، الجزائر، 2002م، ص 95، ياس خضير البياتي: النظرية الإجتماعية: جذورها التاريخية وروادها، دار الشروق للنشر، عمان، الأردن، (د ت)، ص 148.

[28] – إدريس خضير: المرجع السابق، ص 170.

[29] – المرجع نفسه، ص 170-171.

[30] – إدريس خضير: المرجع السابق، ص 171.

[31] – صلاح الفوال: علم الإجتماع البدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط 1، 1974م، ص 115.

[32] – صلاح الفوال: علم الاجتماع والعلوم الإجتماعية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1982م، ص 25، سعيد رعد: المرجع السابق، ص 257-259.

[33] – ياس خضير البياتي: المرجع السابق، ص 148، صلاح الفوال: علم الاجتماع البدوي، ص 116.

[34] – مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط 3، 1992م، ص 72، محمد عابد الجابري: المرجع السابق، ص 224-226.

[35] – ياس خضير البياتي: المرجع السابق، ص 148.

[36] – طه حسين: فلسفة ابن خلدون الإجتماعية، ترجمة محمد عبد الله عنان، مطبعة الإعتماد، مصر، ط 1، 1925م، ص 70-71.

[37] – إدريس خضير: المرجع السابق، ص 172-173.

[38] – إدريس خضير: المرجع السابق، ص 173-174 .

[39] – سعيد رعد: المرجع السابق، ص 61-62.

[40] – ابن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 135 .

[41] – المصدر نفسه، ص 138-139.

[42] – المصدر نفسه، ص 139، طه حسين: المرجع السابق، ص 70-73.

[43] – ناصيف نصار: المرجع السابق، ص 219-220.

[44] – إدريس خضير: المرجع السابق، ص 186-187.

[45] – ياس خضير البياتي: المرجع السابق، ص 219

[46] – عبد الله شريط: نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 31 .

[47] – ناصيف نصار: المرجع السابق، ص 219.

[48] – إدريس خضير: المرجع السابق، ص 187-188.